القسم الرابع
من عيون النثر الفني

لونان
من النثر
للاستماع بالقراءة
والرجوع إلى المعاجم اللغوية
للكشف عن المعنى الغامض من الألفاظ

اللّون الأول: الرسالة الهزلية للشاعر الناثر المشهور: ابن زيدون.

شرح هذه الرسالة: جمال الدين بن نباتة المصري في كتاب سماه:

سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون وتركت الرسالة هنا من غير شرح ليرجع الطالب إلى مصدرها الذي صورت منه هذه الرسالة.

اللون الثاني: المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني وصورت من كتاب: شرح مقامات الهمذاني.

(١) الرسالة الهزلية

لابن زيدون

مصورة من كتاب: «سرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» لابن نباتة المصري

تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم

نشر دار الفكر العربي

أما بعدُ ، أيُّها المصابُ بعقْلِهِ ، المورَّط بجهلِهِ ؛ البَيِّنُ سَقَطُهُ ، الفاحِش غلَطُهُ؛ العاثِرُ فى ذَيْلِ اغترارِهِ ، الأعْمَى عن شمسِ نَهارِهِ ؛ السَّاقطُ سُقوطَ الذُّباب عَلَى الشَّراب ، المتهافتُ تهافتَ الفَراشِ فى الشِّهَاب ؛ فإنَّ الحُبَّ أكذبُ، ومعرفةَ المرءِ نَفْسَهُ أصْوبُ . وإنَّك راسلتَنِي مستهدياً من صلتى ماصفرتْ منه أيدى أمثالِكَ ، متصدِّياً من خُلَّتِي لما قُرِعَتْ دُونَه أنوفُ أشكالِكَ ، مرْسِلاً خليلتَك مرتادةً ، مستعيلاً عشيقتَك قوّادةً ، كاذباً نفسَك أنَّك ستنزل عنها إلىَّ ، وتخلف بعدها علىَّ

ولستَ بأوَّلِ ذِى هِمَّـةٍ دَعتْهُ لِمَا لَيْسَ بالنَّائِلِ

* * *

ولا شكَّ أنها قلَتْكَ إذْ لم تضِنّ بكَ ، ومَلَّتْك إذ لم تَغَرْ عَلَيْكَ ، فإنَّها أعْذرَتْ فى السَّفَارةِ لَكَ ، وما قَصَّرَتْ فى النِّيابَةِ عَنْك ، زاعمةً أنّ المروءةَ

لَفْظٌ أنتَ مَعْنَاهُ ، والإنسانيَةَ اسمٌ أنتَ جِسْمُهُ وَهَيُولاَهُ ، قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال ، واستأثرتَ بالكَمال ، واستَغْلَيْتَ فى مَراتِبِ الجَلاَلِ ، واستولَيْتَ على محاسِنِ الخِلاَل ، حتى خِلْتَ أنَّ يُوسفَ ـ عليه السلام ـ حاسَنَك فغضَضت مِنْهُ ، وأنَّ امرأةَ العزيز رَأَتْكَ فَسَلَتْ عنه ، وأنَّ قارونَ أصابَ بعض ما كَنَزْتَ ، والنَّطِفَ عَثَر على فضلِ مارَكَزْتَ ، وكسرى حمل غاشيتَك ، وقَيْصَرَ رَعَى ماشيتَك ، والإسْكَندَر قَتَل دارًا فى طاعتك ، وأزدشيرَ جاهد مُلوك الطّوائف لخروجهم عن جماعتك ، والضّحّاك استدعَى مسالتك ، وجَذيمة الأبرش تمنّى منادمتَك ، وشِيرين قد نافَسَتْ بُورَان فيكَ ، وبلقيس غايرت الزَّبّاء عَلَيْكَ . وأنَّ مالكَ بن نُوَيرة إنَّما ردِفَ لَكَ ، وعُرْوة ابن جعفر إنَّما رَحَل إليكَ ، وكُلَيب بن ربيعة إنَّما حَمَى المرعَى بعزّتِكَ ، وجَسَّاسًا إنما قتله بأَنفَتِكَ ، ومُهلهلا إنّما طلبَ ثأرَه بهمّتك ، والسَّمَوْءَلَ إنَّما وَفَى عَنْ عَهدِكَ ، والأحْنَفَ إنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدِكَ ، وحَاتِمًا إنما جاد بوفْرِكَ ، ولقىَ الأضياف ببِشْرِكَ ، وزيد بن مهلهل إنما ركب بفَخِذيْكَ ، والسُّلَيك ابن السُّلَكَةِ إنَّما عدا على رجليْك ، وعامر بن مالك إنّما لاعب الأسنَّة بيديك ، وقَيْس بن زهير إنما استعان بدَهَائك ، وإياس بن معاوية إنَّما استضاء بمصباح ذكائك ، وسَحبانَ إنَّما تكلّم باسانك ، وعمرو بن الأهتم إنما سَحر ببيانك ، وأنّ الصُّلح بين بكر وتَغلِب تمَّ برسالتك ، والحمالات بين عبس وذُبيان أسنِدت إلى كَفَالتك ، وأنَّ احتيال هَرِم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن إشارتك ، وجوابه لعمر ـ وقد سأله عن أيّهما كان ينفِّر ـ وقَع عن إرادتك ، وأنَّ الحجّاج تقلّد ولاية العراق بجَدّك ، وقُتيبة فتح ما وراء النَّهر بسَعْدِك ، والمهلّب أوْهَنَ شَوْكَة الأزارِقة بأيْدِك ، وفرّق ذاتَ بينهم بِكَيْدِكَ ،

وأنّ هِرْمس أعطى بلينوسَ ما أخذ منك ، وأفلاطونَ أورد على أرسطاطاليس ما نَقَل عنك ، وَبَطْلَيْمُوسَ سوَّى الأسْطُرلابَ بتدبيرك ، وصوَّر الكُرةَ على تقديرك ، وبُقْرَاطَ عَلِمَ العِلَل والأمراضَ بلطفِ حِسِّكَ ، وجَالِينُوسَ عَرَفَ طَبَائعَ الحشائش بدقةِ حَدْسِكَ ، وكِلاهُمَا قَلَّدَكَ فِي العِلاَج ، وسَألَكَ عن المِزَاج ، واسْتَوْصَفَكَ تركيبَ الأعْضَاء ، واسْتَشَارَكَ فى الدَّاء والدَّوَاء ، وأنَّكَ نهجْتَ لأبى معشرٍ طَرِيقَ القَضَاء ، وأظْهَرْتَ جابرَ بن حيَّانَ عَلَى سِرِّ الكيمِيَاء ، وأعطيتَ النَّظَّامَ أصلاً أدركَ به الحقائقَ ، وجَعَلْتَ للكندىّ رسماً استخرَج به الدقائق ؛ وأنّ صِناعة الألحانِ اختراعُك ، وتأليفَ الأوتارِ والأنقار توليدُك وابتداعُك ، وأنّ عبدَ الحميد بن يحيى بلرى أقلامِكَ ، وسَهْل بن هارون مُدَوِّنُ كَلامِكَ ، وعَمْرو بن بحر مُسْتَمْلِيك ، ومالكَ بن أنسٍ مُسْتَفْتِيكَ ، وأنّك الّذى أقام البَراهين ، ووضَع القوانين ، وحدّ الماهيّة ، وبَيّنَ الكيفيّة والكمّيّة ، وناظَر فى الجوهرِ والعَرَض ، وميزَ الصِّحّة من المرض ، وفكّ المعمَّى ، وفَصَل بين الاسمِ والمُسَمَّى ، وصرَف وقَسَّمَ ، وَعَدَل وقَوَّم ، وصنَّفَ الأسماء والأفعال ، وبوّب الظَّرْف والحالَ ، وبنَى وأعْرَب ، ونَفَى وتعجَّب ، ووصل وقَطَع ، وثَنَّى وجَمَع ، وأظهرَ وأضْمَر ، واسْتَفْهَم وأخْبَر ، وأهمل وقَيّد ، وأرْسَل وأسْنَدَ ، وبحثَ ونَظَر ، وتصفَّح الأدْيَان ، ورجّح بين مَذْهَبَيْ مانِي وغَيْلاَن ، وأشارَ بذَبْحِ الجَعْد ، وقَتْل بشّار بن بُرْدٍ ، وأنّكَ لو شِئْتَ خَرَقْتَ العَادَاتِ ، وخَالَفْتَ المَعْهُوداتِ ، فأحلْتَ البحار عَذْبَةً ، وأعَدْتَ السَّلاَم رَطْبَةً ، ونَقَلْتَ غَداً فَصَارَ أمْساً ، وزِدْتَ فِي العَنَاصِرِ فكانَتْ خَمْساً ، وأنّكَ المقولُ فيه : « كلُّ الصَّيْدِ فى جوف الفَرا » .

و : ليس على الله بمستنكَرٍ أن يَجمَع العالَمَ فى واحدِ

والمعنىُ بقول أبى تمّام :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مافِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمراد بقول أبي الطيب :

ذُكِرَ الأنامُ لَنَا فكان قصيدةً كُنْتَ البديعَ الفَرْدَ من أبْيَاتِهَا

فكدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ، واسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، ونَفَخْتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ، وَلَمْ تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهَزًّا ، وَلاَ لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا ، بل رضيتْ من الغنيمة بالإياب ، و تَمَنَّتِ الرُّجُوعَ بِخُفَّيْ حُنَين ، لأنّى قُلْتُ :

* لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيه الثَّعَالِبُ *

وأنشَدْتُ :

عَلَى أنَّهَا الأيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ ، حَتَّى لَيْسَ فِيها عجائبُ

وَنَخَرْتُ وَ كَفَرْتُ ، وَعَبَسْتُ وَ بَسَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ وأرعدتَ .

و : * همتُ ولمْ أفعلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي *

وَلَوْلاَ أنّ للجوارِ ذِمَّة ، وللضيافة حرمة ، لكانَ الجوابُ فى قذَالِ الدُّمُسْتُقِ ،والنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ .

وَهَبْهَا لَمْ تُلاَحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا ، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ ، وكَانَتْ إنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلاَكَ ، وَوَسَمْتَكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُمْرِكَ شَهَادَةً ، وَلاَ تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتِ الْمِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُن كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمَعِيدِيُّ تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ .

هَجِينُ الْقَذَالِ ، أَرْعَنُ السِّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلاَوَةِ ، مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالنَّبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّءُ الإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ

الذَّهَاب وَالْجِيئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسَاوِسِ ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ ، كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ

مَتَى لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَا أَمْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

حَتَّى إِنَّ بَاقِلَّا مَوْصُوفٌ بِالْبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنَّقَةَ مُسْتَحِقٌّ لِاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالِاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ .

كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ! وَأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أَلَّافِهَا ! وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ ، وَتَمَثَّلْتَ :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

وَذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لَا يُبَاعُ فِيمَنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ ، مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّزْفِئَةِ . وَلَوْلَا أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ ، لَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَا تَقِي يَسَار ، فَمَا هَمَّ إِلَّا بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِأَيْسَرِ مَا تَعَرَّضْتَ .

* * *

أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ! أَمَا ثَابَ لَكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتَنْكِحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحِبِطَاتُ

وَهَلاَّ عَشَّيْتَ وَلَمْ تَفْتَرَّ ! وما أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ ، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ وَمَتَى كَثُرَ تَلاَقِينَا ، وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ؛ :

وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ فَأَنْكِحَ فِي جَنْبٍ ، أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولُ : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ! وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ ، لارْتَفَعْتُ ، عَنْ هَذِهِ الْحِطَّةِ ، وَلاَ رَضِيتُ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ ، فَالنَّارُ وَلاَ الْعَارُ ، والمنيّة ولا الدنيّة ، والحُرّة تَجُوعُ وَلاَ تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا

فَكَيْفَ وَفِي أبناء قومِيَ مَنْكَحٌ وَفِتْيَانُ هِزَّانَ الطِّوَالُ الْفَرَانِقَه

* * *

مَا كُنْتُ لأَنْحَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلاَ أَمْتَطِي الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمِ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لاَ ذَلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرَيْحَانِ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ ، والرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فَحَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ وَاوُ عَمْرٍو فيهم ، وَكَالْوَشِيظَةِ فِي الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ !

وإنْ كُنْتَ إنما بَلَغْتَ قَعْرَ تابُوتِكَ ، وَتَجافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْدانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيانَكَ ، وَاخْتَلْتَ فِي مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حاجِبَكَ ، وَرَفَعْتَ خَطَّ عِذارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزارِكَ ، رَجاءَ الاكْتِنانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الاعْتِدادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا .

* * *

وَاللهِ لَوْ كَساكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ مارِيَةُ بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو الصِّمْصامَةَ ، وَحَمَلَكَ الحارِثُ عَلَى النَّعامَةِ ، ما شَكَكْتُ فيك ، وَلاَ سَتَرَتْ أَباكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذاكَ .

وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجارَيْتَهُمْ فِي غايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكاعٌ ، إِذْ كُلُّهُمْ عَرَبٌ خالِي الذِّراعِ !

وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاَ أَغْلِبُ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ ! وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَمْتَدِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ .

وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشَفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ ؛ وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتٍ سَلُولِيَّةٍ !

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجالِ

ما كانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ عَلَى ظِلْعِكَ ، وَلا تَكُنْ بَرَاقِشَ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ

إلَّا سَقَطَ العَشَاءُ بِكَ على سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ ، أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيْئًا ، وأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا

إِنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ والشَّرُّ تَحْقِرُهُ وقَدْ يَنْمِي

وإِنْ بَادَرْتَ بالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ على نَفْسِكَ بالملامَة ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ العَافِيَةَ لَكَ بِالعَافِيَةِ مِنْكَ ، وإِنْ قُلْتَ : « جَمْجَمَةً بلا طِحْن » ، وَ « رُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَة » ، وَأَنْشَدْتَ :

لاَ يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُحَذَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

فَمُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَقْفَيْتَ مِنْهُ ، بعثتُ مَنْ يُزْعجك إلى الخَضْرَاء دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَها وَكْزًا وَصَفْعًا .

فإذا صِرْتَ إليها عَبَثَ أَكَّارُوها بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُها عَلَيكَ ، فَمِنْ قَرْعَةٍ مُفْوَجَةٍ تَقُومُ فِي قَفَاكَ ، ذَاكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ؛ لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالاَ يَرَى

(٢)

مصورة من

«شرح مقامات الهمذاني»

نشر دار التراث بيروت

الْمَقَامَةُ الْمَضيريَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَام قَالَ :

كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَعِيَ أَبُو الْفَتْح الإِسْكَنْدَرِيُّ رَجُلُ الفَصاحَةِ يَدْعُوهَا فَتُجيبُهُ ، وَالْبَلاَغَةِ يَأْمُرُهَا فَتُطِيعُهُ ، وَحَضَرْنَا مَعَه دَعْوَةَ بَعْض التُّجَّار ، فَقُدِّمَتْ إِلَيْنَا مَضيرَةٌ ، تُثْنِي عَلَى الحَضَارةِ ، وَتَتَرَجْرَجُ في الْغضارَةِ ، وتؤْذِنُ بالسَّلاَمَةِ ، وَتَشْهَد لِمعَاوِيةَ رَحِمَه الله بالإِمَامَةِ ، فِي قَصعَةٍ يَزلُّ عَنْهَا الطَّرْف ، وَيَموج فِيهَا الظَّرْف ، فَلَمَّا أَخَذَتْ مِنَ الخوَانِ مَكَانَهَا ، وَمِنَ الْقلوبِ أَوْطَانَهَا ، قَامَ أَبو الْفَتْح الإِسْكَنْدَرِيُّ يَلْعَنُها وَصاحِبَهَا ، وَيَمْقُتُهَا وَآكلَهَا ، وَيَذْلِبهَا وَطَابخَهَا ، وَظَنَنَّاه يَمْزَحُ فَإِذَا الأَمْرُ بالضِّدِّ ، وَإِذَا الْمِزَاحُ عَيْنُ الجِدِّ ، وَتَنَحَّى عَن الخوَانِ ، وَتَرَكَ

مسَاعَدَةَ الإِخْوَانِ ، وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوب ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا الْعُيونُ ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الأَفْوَاهُ ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ ، وَاتَّقَدَتْ لَها الأَكْبَادُ ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ ، وَلٰكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هَجْرِهَا ، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِهَا ، فَقَالَ : قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا ، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ آمَنِ الْمَقْتَ ، وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ ، قُلْنَا : هاتِ ، قَالَ : دَعَانِي بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَى مَصِيرَةٍ وَأَنَا بِبَغْدَادَ ، وَلَزِمَنِي مُلَازَمَةَ الْغَرِيمِ ، وَالْكَلْبِ لِأَصْحَابِ الرَّقِيمِ ، إِلَى أَنْ أَجَبْتُهُ إِلَيْهَا ، وَقُمْنَا فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْنِي عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَيُفَدِّيهَا بِمُهْجَتِهِ ، وَيَصِفُ حِذْقَهَا فِي صَنْعَتِهَا ، وَتَأَنُّقَهَا فِي طَبْخِهَا وَيَقُولُ : يَا مَوْلَايَ لَوْ رَأَيْتَهَا ، وَالْخِرْقَةُ فِي وَسَطِهَا ، وَهِيَ تَدور فِي الدُّورِ ، مِنَ التَّنُّورِ إِلَى الْقُدُورِ وَمِنَ الْقُدُورِ إِلَى التَّنُّورِ ، تَنْفُثُ بِفِيهَا النَّارَ ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الأَبْزَارَ ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَّرَ فِي ذٰلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ ، وَأَثَّرَ فِي ذٰلِكَ الْخَدِّ الصَّقِيلِ ، لَرَأَيْتَ مَنْظَراً تَحارُ فِيهِ الْعيونُ ، وَأَنَا أَعْشَقُهَا لأَنَّهَا تَعْشَقُنِي ، وَمِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يرْزَقَ الْمسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِظَعِينَتِهِ ، وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَتْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمٍّ لَحّاً ، طِينَتُها

طِينَتي ، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتي ، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتي ، وَأُرومَتُهَا أُرومَتي ، لٰكِنَّهَا أَوسَعُ مِني خُلْقاً ، وأَحسَنُ خَلْقاً ، وَصَدَّعَني بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَحَلَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَوْلَايَ تَرى هٰذِهِ الْمَحَلَّة ؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالِّ بَغْدَادَ ، يَتَنَافَسُ الأَخْيَارُ في نُزُولِها ، وَيَتَغَايَرُ الْكِبَارُ في حُلُولِهَا ، ثُمَّ لا يَسْكُنُهَا غَيْرُ التُّجَّارِ ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِالْجَارِ وَدَارِي في السُّطَةِ مِنْ قِلَادَتِهَا ، وَالنُّقْطَةِ مِنْ دَائِرَتِهَا ، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مَوْلَايَ أُنْفِقَ عَلَى كُلِّ دَارٍ مِنْهَا ؟ قُلْهُ تَخْمِيناً ، إِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ يَقِيناً ، قُلْتُ : الْكَثِيرُ ، فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللهِ ! مَا أَكْبَرَ هٰذَا الغَلَطَ ! تَقُولُ الْكَثِيرَ فَقَطْ ؟ وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ، وَقَالَ : سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ دَارِهِ ، فَقَالَ : هٰذِهِ دَارِي ، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مَوْلَايَ أَنْفَقْتُ عَلَى هٰذِهِ الطَّاقَةِ ؟ أَنْفَقْتُ وَاللهِ عَلَيْهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ ، وَوَرَاءَ الْفَاقَةِ ، كَيْفَ تَرَى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا ؟ أَرَأَيْتَ بِاللهِ مِثْلَهَا ؟ أَنْظُرْ إِلَى دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا ، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجِهَا ، فَكَأَنَّمَا خُطَّ بِالْبِرْكَارِ ، وَانْظُرْ إِلَى حِذْقِ النَّجَّارِ في صَنْعَةِ هٰذَا الْبَابِ ، اتَّخَذَهُ مِنْ كَمْ ؟ قُلْ : وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ ، هُوَ سَاجٌ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لا مَأْرُوضٌ وَلَا عَفِنٌ ، إِذَا حُرِّكَ أَنَّ ، وَإِذَا نُقِرَ طَنَّ ، مَنِ

اتَّخَذَهُ يَا سَيِّدِي ؟ اتَّخَذَه أبو إسْحَاقَ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيُّ ، وَهُوَ وَاللهِ نَظِيفُ الأَثْوَابِ ، بَصِيرٌ بِصَنْعَةِ الأَبْوَابِ خَفِيفُ الْيَدِ فِي الْعَمَلِ ، للهِ دَرُّ ذٰلِكَ الرَّجلِ ! بِحَيَاتِي لاَ اسْتَعَنْتَ إلَّا بِهِ عَلَى مِثْلِهِ ، وَهٰذِهِ الْحَلَقَةُ تَرَاهَا اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عِمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرَ مُعِزِّيَّةٍ وكَمْ فِيهَا يَا سَيِّدِي مِنَ الشَّبَهِ ؟ فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ ، وَهِيَ تَدورُ بِلَوْلَبٍ فِي الْبَابِ ، بِاللهِ دَوِّرْهَا ، ثُمَّ أَنْقُرْهَا وَاَبْصُرْهَا ، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الْحَلَقَ إلَّا مِنْهُ ؛ فَلَيْسَ يَبِيعُ إلَّا الأَعْلَاقَ ، ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدِّهْلِيزَ ، وَقَالَ : عَمَّرَكَ اللهُ يَا دَارُ وَلَا خَرَّبَكَ يَا جِدَارُ ، فَمَا أَمْتَنَ حِيطَانَكِ ، وَأَوْثَقَ بُنْيَانَكِ ، وَأَقْوَى أَسَاسَكِ ، تَأَمَّلْ بِاللهِ مَعَارِجَهَا ، وَتَبَيَّنْ دَوَاخِلَهَا وَخَوَارِجَهَا ، وَسَلْنِي : كَيْفَ حَصَّلْتُهَا ؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلْتُهَا ، حَتَّى عَقَدْتُهَا؟ كَانَ لِي جَارٌ يُكَنَّى أَبَا سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هٰذِهِ الْمَحَلَّةَ ، وَلَهُ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسَعُهُ الْخَزْنُ ، وَمِنَ الصَّامِتِ مَا لَا يَحْصُرُهُ الْوَزْنُ ، مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ وَخَلَّفَ خَلْفاً أَتْلَفَهُ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالزَّمْرِ ، وَمَزَّقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالْقَمْرِ ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوقَهُ قَائِدُ الاَضْطِرَارِ ، إلَى بَيْعِ الدَّارِ ، فَيَبِيعَهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَرِ ، أَوْ يَجْعَلَهَا عُرْضَةً لِلْخَطَرِ ، ثُمَّ أَرَاهَا ،

وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا ، فَأَتَقَطَّعُ عَلَيْهَا حَسَرَاتٍ ، إِلَى يَوْمِ المَمَاتِ ، فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لَا تَنِصُّ تِجَارَتُهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ ، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيَّةً ، وَالْمُدْبِرُ يَحْسَبُ النَّسِيَّةَ عَطِيَّةً ، وَالْمُتَخَلِّفُ يَعْتَدُّهَا هَدِيَّةً ، وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ ، فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي ، ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنِ اقْتِضَائِهِ ، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ ، فَأَتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ ، وَاسْتَمْهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ ، وَالْتَمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ ، وَوَثِيقَةً فِي يَدَيَّ ، فَفَعَلَ ، ثُمَّ دَرَّجْتُهُ بِالْمُعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِجَدٍّ صَاعِدٍ ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ ، وَقُوَّةٍ سَاعِدٍ ، وَرُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللهِ مَجْدُودٌ ، وَفِي مِثْلِ هٰذِهِ الْأَحْوَالِ مَحْمُودٌ ، وَحَسْبُكَ يَا مَوْلَايَ أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَالٍ نَائِماً فِي الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ ، فَقُلْتُ : مَنِ الطَّارِقُ الْمُنْتَابُ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا عِقْدُ لآلٍ ، فِي جِلْدَةِ مَاءٍ وَرِقَّةِ آلٍ ، تَعْرِضُهُ لِلْبَيْعِ ، فَأَخَذْتُهُ مِنْهَا إِخْذَةَ خَلْسٍ ، وَاشْتَرَيْتُهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ، وَسَيَكُونُ لَهُ نَفْعٌ ظَاهِرٌ ، وَرِبْحٌ وَافِرٌ ، بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى وَدَوْلَتِكَ ، وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ سَعَادَةَ جَدِّي فِي التِّجَارَةِ ،

وَالسَّعَادَةُ تُنْبِطُ ٱلْمَاءَ مِنَ الْحِجَارَةِ ،ٱللهُ أَكْبَرُ لَا يُنْبِئُكَ أَصْدَقُ مِنْ نَفْسِكَ ،وَلَا أَقْرَبُ مِنْ أَمْسِكَ ،ٱشْتَرَيْتُ هٰذَا الْحَصِيرَ فِي الْمُنَادَاتِ ، وَقَدْ أُخْرِجَ مِنْ دُورِ آلِ الْفُرَاتِ ، وَقْتَ الْمُصَادَرَاتِ ، وَزَمَنَ الْغَارَاتِ وَكُنْتُ أَطْلُبُ مِثْلَهُ مُنْذُ الزَّمَنِ الْأَطْوَلِ فَلَا أَجِدُ ، وَالدَّهْرُ حُبْلَى لَيْسَ يُدْرَى مَا يَلِدُ ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنِّي حَضَرْتُ بَابَ الطَّاقِ ، وَهٰذَا يُعْرَضُ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَوَزَنْتُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا دِينَاراً ، تَأَمَّلْ بِاللهِ دِقَّتَهُ وَلِينَهُ ، وَصَنْعَتَهُ ،وَلَوْنَهُ فَهُوَ عَظِيمُ الْقَدْرِ ،لَا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلَّا فِي النَّدْرِ ، وَإِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِأَبِي عِمْرَانَ الْحَصِيرِيِّ فَهُوَ عَمَلُهُ ، وَلَهُ ابْنٌ يَخْلُفُهُ الْآنَ فِي حَانُوتِهِ لَا يُوجَدُ أَعْلَاقُ الْحُصُرِ إِلَّا عِنْدَهُ ؛ فَبِحَيَاتِي لَا ٱشْتَرَيْتَ ٱلْحُصُرَ إِلَّا مِنْ دُكَّانِهِ ، فَالْمُؤْمِنُ نَاصِحٌ لِإِخْوَانِهِ ، لَا سِيَّمَا مَنْ تَحَرَّمَ بِخُوَانِهِ ، وَنَعُودُ إِلَى حَدِيثِ الْمَضِيرَةِ ،فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرَةِ ، يَا غُلَامُ ٱلطَّسْتَ وَالْمَاءَ فَقُلْتُ : ٱللهُ أَكْبَرُ ، رُبَّمَا قَرُبَ الفَرَجُ ، وَسَهُلَ الْمَخْرَجُ ، وَتَقَدَّمَ الْغُلَامُ ، فَقَالَ : تَرَى هٰذَا الْغُلَامَ ؟ إِنَّهُ رُومِيُّ ٱلْأَصْلِ ، عِرَاقِيُّ النَّشْءِ . تَقَدَّمْ يَا غُلَامُ وَاحْسِرْ عَنْ رَأْسِكَ ، وَشَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ ، وَانْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ ، وَافْتَرَّ عَنْ

أَسْنَانَكَ ، وَأَقْبِلْ وَأَدبِرْ ، فَفَعَلَ الْغُلَامُ ذٰلِكَ ، وَقَالَ التَّاجِرُ : بِاللهِ مَنِ اشْتَرَاهُ ؟ اشْتَرَاهُ وَاللهِ أَبُو الْعَبَّاسِ ، مِنَ النَّخَّاسِ ، ضَعِ الطَّسْتَ ، وَهَاتِ الْإِبْرِيقَ ، فَوَضَعَهُ الْغُلَامُ ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ وَقَلَّبَهُ وَأَدَارَ فِيهِ النَّظَرَ ثُمَّ نَقَرَهُ ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى هٰذَا الشَّبَهِ كَأَنَّهُ جَذْوَةُ اللَّهَبِ ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ ، شَبَهُ الشَّامِ ، وَصَنْعَةُ الْعِرَاقِ ، لَيْسَ مِنْ خُلْقَانِ الْأَعْلَاقِ ، قَدْ عَرَفَ دُورَ الْمُلُوكِ وَدَارَهَا ، تَأَمَّلْ حُسْنَهُ وَسَلْنِي مَتَى اشْتَرَيْتُهُ ؟ اشْتَرَيْتُهُ وَاللهِ عَامَ الْمَجَاعَةِ ، وَادَّخَرْتُهُ لِهٰذِهِ السَّاعَةِ ، يَا غُلَامُ الْإِبْرِيقَ ، فَقَدَّمَهُ ، وَأَخَذَهُ التَّاجِرُ فَقَلَّبَهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَأُنْبُوبُهُ مِنْهُ ، لَا يَصْلُحُ هٰذَا الْإِبْرِيقُ إِلَّا لِهٰذَا الطَّسْتِ ، وَلَا يَصْلُحُ هٰذَا الطَّسْتُ إِلَّا مَعَ هٰذَا الدَّسْتِ ، وَلَا يَحْسُنُ هٰذَا الدَّسْتُ إِلَّا فِي هٰذَا الْبَيْتِ ، وَلَا يَجْمُلُ هٰذَا الْبَيْتُ إِلَّا مَعَ هٰذَا الضَّيْفِ ، أَرْسِلِ الْمَاءَ يَا غُلَامُ ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الطَّعَامِ ، بِاللهِ تَرَى هٰذَا الْمَاءَ مَا أَصْفَاهُ ، أَزْرَقُ كَعَيْنِ السِّنَّوْرِ ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ الْبِلَّوْرِ ، اسْتُقِيَ مِنَ الْفُرَاتِ ، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ الْبَيَاتِ فَجَاءَ كَلِسَانِ الشَّمْعَةِ ، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَةِ ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي السَّقَاءِ ، الشَّأْنُ فِي الْإِنَاءِ ، لَا يَدُلُّكَ عَلَى نَظَافَةِ أَسْبَابِهِ ، أَصْدَقُ مِنْ نَظَافَةِ

شَرَابِهِ ، وَهٰذَا الْمِنْدِيلُ سَلْنِي عَنْ قِصَّتِهِ ، فَهُوَ نَسْجُ جُرْجَانَ ، وَعَمَلُ أَرَّجَانَ ، وَقَعَ إِلَيَّ فَاشْتَرَيْتُهُ ، فَاتَّخَذَتْ امْرَأَتِي بَعْضَهُ سَرَاوِيلاً ، وَاتَّخَذَتْ بَعْضَهُ مِنْدِيلاً ؛ دَخَلَ فِي سَرَاوِيلِهَا عِشْرُونَ ذِرَاعاً ، وَانْتَزَعْتُ مِنْ يَدِهَا هٰذَا الْقَدْرَ انْتِزَاعاً ، وَأَسْلَمْتُهُ إِلَى الْمُطَرِّزِ حَتَّى صَنَعَهُ كَمَا تَرَاهُ وَطَرَّزَهُ ، ثُمَّ رَدَدْتُهُ مِنَ السُّوقِ ، وَخَزَنْتُهُ فِي الصُّنْدُوقِ ، وَادَّخَرْتُهُ لِلظُّرَافِ ، مِنَ الْأَضْيَافِ ، لَمْ تُذِلَّهُ عَرَبُ الْعَامَّةِ بِأَيْدِيهَا وَلَا النِّسَاءُ لِمَآقِيهَا ، فَلِكُلِّ عِلْقٍ يَوْمٌ ، وَلِكُلِّ آلَةٍ قَوْمٌ ، يَا غُلَامُ الْخُوَانَ ، فَقَدْ طَالَ الزَّمَانُ ، وَالْقِصَاعَ ، فَقَدْ طَالَ الْمِصَاعُ ، وَالطَّعَامَ ، فَقَدْ كَثُرَ الْكَلَامُ ، فَأَتَى الْغُلَامُ بِالْخِوَانِ ، وَقَلَّبَهُ التَّاجِرُ عَلَى الْمَكَانِ ، وَنَقَرَهُ بِالْبَنَانِ ، وَعَجَمَهُ بِالْأَسْنَانِ ، وَقَالَ : عَمَّرَ اللهُ بَغْدَادَ فَمَا أَجْوَدَ مَتَاعَهَا ، وَأَظْرَفَ صُنَّاعَهَا ، تَأَمَّلْ بِاللهِ هٰذَا الْخُوَانَ ، وَانْظُرْ إِلَى عَرْضِ مَتْنِهِ ، وَخِفَّةِ وَزْنِهِ ، وَصَلَابَةِ عُودِهِ ، وَحُسْنِ شَكْلِهِ ، فَقُلْتُ : هٰذَا الشَّكْلُ ، فَمَتَى الْأَكْلُ ؟ فَقَالَ : الْآنَ ، عَجِّلْ يَا غُلَامُ الطَّعَامَ ،لٰكِنَّ الْخِوَانَ قَوَائِمُهُ مِنْهُ ، قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ : فَجَاشَتْ نَفْسِي ، وَقُلْتُ : قَدْ بَقِيَ الْخُبْزُ وَآلَاتُهُ ، وَالْخُبْزُ وَصِفَاتُهُ ، وَالْحِنْطَةُ

مِنْ أَيْنَ اشْتُرِيَتْ أَصْلاً ، وَكَيْفَ اكْتَرَى لَهَا حَمْلاً ، وَفِي أَيِّ رَحًى طَحَنَ ، وَإِجَّانَةٍ عَجَنَ ، وَأَيِّ تَنُّورٍ سَجَرَ ، وَخَبَّازٍ اسْتَأْجَرَ ، وَبَقِيَ الْحَطَبُ مِنْ أَيْنَ احْتُطِبَ ، وَمَتَى جُلِبَ ؟ وَكَيْفَ صُفِّفَ حَتَّى جُفِّفَ ؟ وَحُبِسَ ، حَتَّى يَبِسَ ، وَبَقِيَ الْخَبَّازُ وَوَصْفُهُ ، وَالتِّلْمِيذُ وَنَعْتُهُ وَالدَّقِيقُ وَمَدْحُهُ وَالْخَمِيرُ وَشَرْحُهُ ، وَالْمِلْحُ وَمَلَاحَتُهُ ، وَبَقِيَتِ السُّكُرَّجَاتُ مَنِ اتَّخَذَهَا ، وَكَيْفَ انْتَقَدَهَا ؟ وَمَنِ اسْتَعْمَلَهَا ؟ وَمَنْ عَمِلَهَا ؟ وَالْخَلُّ كَيفَ انْتُقِيَ عِنَبُهُ أَوْ اشْتُرِيَ رُطَبُهُ ؟ وَكَيفَ صُهْرِجَتْ مِعْصَرَتُهُ ؟ وَاسْتُخْلِصَ لُبُّهُ ؟ وَكَيْفَ قُيِّرَ حُبُّهُ ؟ وَكَمْ يُساوي دَنُّهُ ؟ وَبَقِيَ الْبَقْلُ كَيْفَ احْتِيلَ لَهُ حَتَّى قُطِفَ ؟ وَفِي أَيِّ مَبْقَلَةٍ رُصِفَ ؟ وَكَيْفَ تُؤُنِّقَ حَتَّى نُظِّفَ ؟ وَبَقِيَتِ الْمَضِيرَةُ كَيْفَ اشْتُرِيَ لَحْمُهَا ؟ وَوُفِّيَ شَحْمُها ؟ وَنُصِبَتْ قِدْرُها ، وَأُجِّجَتْ نَارُها ، وَدُقَّتْ أَبْزَارُها ، حَتَّى أُجِيدَ طَبْخُها وَعُقِدَ مَرَقُها ؟ وَهذَا خَطْبٌ يَطُمُّ ، وَأَمْرٌ لا يَتِمُّ ، فَقُمْتُ ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فقُلْتُ : حاجَةً أَقْضِيها ، فقالَ : يا مَوْلاي تُرِيدُ كَنِيفاً يُزْرِي بِرَبِيعِيِّ الْأَمِيرِ ، وَخَرِيفِيِّ الْوَزِيرِ ، قَدْ جُحِّصَ أَعْلَاهُ وَصُهْرِجَ أَسْفَلُه ، وَسُطِّحَ سَقْفُهُ ، وَفُرِشَتْ بِالمَرْمَرِ أَرْضُهُ ، يَزِلُّ عَنْ حائِطِهِ الذَّرُّ فَلَا يَعْلَقُ ، وَيَمْشِي عَلَى أَرْضِهِ الذُّبَابُ فَيَزْلَقُ ، عَلَيْهِ بَابٌ

غِيرَانُهُ مِنْ خَلِيطَيْ ساجٍ وَعَاجٍ ، مُزْدَوِجَيْنِ أَحْسَنَ ازْدِواجٍ ، يَتَمَنَّى الضَّيْفُ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ ، فقُلْتُ : كُلْ أَنْتَ مِنْ هذَا الجِرابِ ، لَمْ يَكُنِ الْكَنِيفُ في الحِسابِ ، وَخَرَجْتُ نَحْوَ الْبابِ ، وَأَسْرَعْتُ في الذَّهَابِ ، وَجَعَلْتُ أَعْدُو وَهُوَ يَتْبَعُنِي وَيَصِيحُ : يَا أَبا الْفَتْحِ المَضِيرَةَ ، وَظَنَّ الصِّبْيَانُ أَنَّ الْمَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي فَصاحُوا صِياحَهُ ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ ، مِنْ فَرْطِ الضَّجَرِ ، فَلَقِيَ رَجُلٌ الحَجَرَ بِعِمامَتِهِ ، فَغَاصَ في هامَتِهِ ، فَأُخِذْتُ مِنَ النِّعَالِ بِما قَدُمَ وَحَدُثَ ، وَمِنَ الصَّفْعِ بِمَا طابَ وَخَبُثَ ، وَحُشِرْتُ إِلَى الْحَبْسِ ، فَأَقَمْتُ عامَيْنِ في ذٰلِكَ النَّحْسِ ، فَنَذَرْتُ أَنْ لا آكُلَ مَضِيرَةً ما عِشْتُ ، فَهَلْ أَنا في ذَا يَا لَهَمْدَانَ ظالِمُ ؟ .

قالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ ، وَنَذَرْنا نَذْرَهُ ، وَقُلْنا : قَدِيماً جَنَتِ الْمَضِيرَةُ عَلَى الْأَحْرَارِ ، وَقَدَّمَتِ الأَرَاذِلَ عَلَى الْأَخْيارِ .